

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢ - سُورَةُ الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى : وهى مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرّة مرارا تحقيق ذلك ، وآياتها ثلاث وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حَمَّ)

[٢] (عَسَقَ)

« حَمَّ * عَسَقَ » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير (حَمَّ * عَسَقَ) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير مفكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و (حَمَّ * عَسَقَ) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعدّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيجاءها مثل إيجائها ، بعد تفويها بذكر اسمها والتنبية على نخامة شأنها . والكاف فى حيز الفصص على أنه مفعول لـ (يُوحَى) على الأول - وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و (ذَلِكَ) على الأول إشارة إلى ما فيها . وعلى الثانى إلى إيجائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم . على أن مناط المائلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد . أو مثل إيجائها ، أوحى إليك عند إيجاء سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيجاء كتبهم إليهم . لا إيجاء مغاير له . كما في قوله تعالى (١) ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإبذان باستمرار الوحي ، وأن إيجاء مثله عادته . وفي جعل مضمون السورة أو إيجائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا في وصفه تعالى بوصفي العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لرعاة الفواصل ، مع ما فيه من التشويق . وقرئ (يوحى) على البناء للمفعول ، على أن (كذلك) مبتدأ (ويوحى) خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و (يوحى) مسند إلى (إليك) . و (الله) مرتفع بما دل عليه (يوحى) كأنه قيل : من يوحى ؟ فقيل : الله . (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) صفتان له ، أو مبتدأ ، كما في قراءة (نوحى) . والعزیز وما بعده خبران له . أو العزیز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ)

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] .

« تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ » أى يذشققن لتأثرهن من تجايات عظمته ، ويتلاشين من علو قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بمد (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَالْمَلَكُ الْمِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى شركاء وأندادا « اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر^(١) (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)
« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى الفار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة « وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءَ فِي رَحْمَتِهِ » أى ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافاة ذلك ما يقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالههم ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون ، وفي عذابه ، الكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الداخلين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والكافرون بالله ما لهم من وليّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم في قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يوالىهم وينصرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[١٠] (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى يتولونهم . مع أنه لا ولاية لهم في الحقيقة ، إذ لا قدرة ولا قوة « فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه الولي والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شيء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل وليّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا وليّ سواه « وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى هو المحيي القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ» إِلَى اللَّهِ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تحميد لما يأتى بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه . والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم ما لم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية . ومع ذلك ، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شيء من الخصومات ، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكومته حكومة غيره. كقوله تعالى (١) «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» وتدل أيضا على الرجوع إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض ما لم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى ، بأن يقال: الله أعلم. كفى قوله (٢) «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» وقوله «ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبِّي» بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّي لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فى أمورى كلها « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُّوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
« فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من جنسكم « أَزْوَاجًا »

(١) [٤ / النساء / ٥٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٥] .

أى نساء «وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» أى أصنافا مختلفة ، أود كورا وإنائا «يَذَرُوكُمْ فِيهِ» أى يكثركم . من (الذرة) وهو البث . يقال : ذرا الله الخلق ، بثهم كثرهم . وفسر بد (يخلقكم) . وضمير (فيه) للبطن أو الرحم . وقال الزمخشري : أى فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى (يَذَرُوكُمْ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون المقلاء على الغيب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذروكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذروكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (فى) مستعارة للسببية «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشيء . وأدخل المثل فى الكلام ، تؤكد الكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شيء . وتكون الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع - وهو ما عول عليه المحققون - أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ، على قصد المبالغة فى تقيمه عنه . فإنه إذا نقي عن يناسبه . كان تقيمه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشيء ببيئته . وقد بينت الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشنمى . وهو أنه نقي للشيء بنفى لازمه . لأن نقي اللازم يستلزم نقي الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه . لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنفى هذا اللازم . والمراد نقي ملزومه . أى ليس لزيد أخ . إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نقي أن يكون لمثل الله مثل . والمراد نقي مثله تعالى - إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقق المائلة من الجانبين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فلا يصح نفي مثله (أى نفي مثل ذلك المثل) وبالجملة ، فأطلق نفي مثل المثل ، وأريد لازمه من نفي المثل . قال بعض الأفاضل : طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً . وذلك أن محصل هذا أن نفي المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولاً أنها تقتضى إثباته . ولذا أولوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً شيئاً واحداً ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى الملزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم . مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازماً لحقيقة الآية قطعاً . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعويل فى نفي المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال ، فافهم ذلك . وقال العصام : هذا - أى كون الآية من باب السكناية - وجه تلاقه الفحول بالقبول . ورجّحوه بأن السكناية أبلغ من التصريح . وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث ، وهو أن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل . لأن الشيء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشيء فى صفة ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزلة الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتى فقال : ما قيل إن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض . لأن المائلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الوجوه مما به المائلة . صرح به فى (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام . وتتشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية ردّ على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حالّ فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو الائق بالخلق . ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فثلثوا أولاً وعطلوا آخراً . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، المفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللاتقة به عز وجل . بخلاف سلف الأمة وأجلء الأئمة . فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه . قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفي المثلية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلا أنهم لم يكتفوا شيئاً من ذلك . وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكروها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة . ويزعمون أن من أقر بها مشبه ، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبي : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ، أداه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال : مثل الجهمية كقوم قالوا : في دارنا نخلة . قيل : لها سمف ؟ قالوا : لا . قيل لها كرب ؟ قالوا : لا . قيل لها رطب ؟ قالوا : لا . قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا . قيل : فما في داركم نخلة . قلت : كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا في زمان ولا في مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحانه المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحانه الله العلي العظيم السميع البصير المريد ، الذي كلم موسى تكليماً ، واتخذ إبراهيم خليله ، ويرى في الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رسله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثل شئ وهو السميع البصير .

وقال الذهبي رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا : جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزّه عن الجسم . قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض في ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية) في القاعدة الأولى : إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفي كقوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال . لأن النفي المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشئ . وما ليس بشئ فهو كاقيل ليس بشئ ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا . ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع . والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح ، كقوله ^(١) (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي لا يكرهه ولا يثقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشئ بنوع كلفة

ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته . وكذلك قوله ^(١) (لَا يَمْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض . وكذلك قوله ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) فإن نفي مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة . بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه . وكذلك قوله ^(٣) (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إنما نفي الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية . لأن المعلوم لا يرى ، وليس فى كونه لا يرى مدح . إذ لو كان كذلك لكان المعلوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإن رُئِيَ . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما ، فكذلك إذا رُئِيَ لا يحاط به رؤية . فكان فى نفي الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها . لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا ، هو مما لم يصف الله به نفسه . فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب ، لم يثبتوا فى الحقيقة إلهام محمودا ، بل ولا موجودا . وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش . ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مابين للعالم ولا بجانب له ، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعلوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق : مِثْرَ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِى ثَبَتَهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ . وكذلك كونه لا يتكلم أو لا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات . فهذه الصفات منها مالا يتصف به إلا المعلوم ومنها مالا يتصف به إلا الجمادات والناقص . فمن قال لاهو مابين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة

(١) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٢) [٥٠ / ق / ٣٨] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٣] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له .
ومن قال إنه ليس بحى ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم .
فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ، ولم يقبل البصر كالحائط لا يقال له
أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلاحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع
والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل
الاتصاف بهذه الأمور وتقائضها . فإن الله قادر على جعل الجماد حيا كما جعل عصا موسى
حية ابتلعت الجبال والعصى . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما
يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها . فالجماد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام
ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الآخرس . فإن قيل إن البارى لا يمكن اتصافه
بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم
ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجماد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد
منها . وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه
تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نقي هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث
هى هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع
والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به
من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لسكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ،
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[١٣] (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ

« لَهُوَ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والمملوكوت
« يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه وبغنيه ،
ويقتَر على آخرين « إِنَّهُ وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ « اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى النبي ﷺ بقوله ^(١) (كَذَلِكَ يُوحِي
إِلَيْكَ وَإِلَى الدِّينِ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك ،
وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال ^(٢) (وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وفى الحديث ^(٣) :
نحن معاشر الأنبياء أولاد علات دينا واحد . يعنى : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ،
وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم . كقوله تعالى ^(٤) (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .
وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء
وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاستماله قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل
على نبوة بعضهم . وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل . والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [٤٢ / الشورى / ٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذا ذكر فى الكتاب مريم ،

حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ (طبعنا) .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٨] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام .
 والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هى الشريعة السكاملة .
 ولذا عبر فيه بـ (الَّذِي) التى هى أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة ، تخصيصاً له
 ولشريعته بالتحريف وعظم الشأن وكال الاعتناء . وهو السر فى تقديمه على ما بعده مع تقدمه
 عليه زماناً « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده
 بالآلوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ » وهو من صرف
 اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله
 من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان
 حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةُ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَمَا تَفَرَّقُوا » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى
 الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَغْيًا بَيْنَهُمْ » أى ظلماً وتعدياً
 وطلباً للرئاسة « وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو تأخير العذاب
 إلى يوم القيامة « لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جنائياتهم لذلك « وَإِنَّ
 الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين من الله عليهم بالكتاب العزيز
 « لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع لاتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يشكونه من الوسواس
 الصادرة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ
ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ،
اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« فَلِذَلِكَ فَادْعُ » أى فلاجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة
إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَاسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه
والصدع به « كَمَا أُمِرْتَ » أى أوحى إليك « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ » وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ » أى : أى كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه
تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ،
وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » أى لأسوى بينكم فى دعوة
واحدة كقال تعالى ^(١) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) الآية . ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به
من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى لاختصومة ولا محاجة بعد هذا . لأن الحق قد ظهر . ولم يبق
للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة . والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج .
كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر
« اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »
أى المعاد والمرجع للجزاء .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

تنبيهان :

الأول - تفسير العدل بما ذكرناه ، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيا والسورة مكية . ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات . نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أمر النبي ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم . وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل يرد المعتدى ويوبخه .

الثانى - قال ابن كثير : اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة . كل منها منفصلة عن التى قبلها . حكم برأسها . قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي . فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ » أى يخاضمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أورثوا الكتاب ، المذكورون قبل ، يصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية « مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِبَ لَهُمْ » أى استجاب له الناس . أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة ، مجازاة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ » أى عظيم ، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

«اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره «وَالْمِيزَانَ» أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوى به الخلاف «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» قال أبو السعود : أى شىء قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب وأعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

«يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا» أى خائفون منها . قال ابن جرير (١) : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها «وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ» أى المتحقق وجوده لا محالة «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

[٢٠] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

«اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ» أى يلطف بهم فى تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَيُّومُ الْعَزِيزُ* مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ وَفِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» . قال الزمخشري : سمى ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة والزكاء ، حرثاً على المجاز - أى بتشبيهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) و الفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها ، لا ما يريد ويبتغيه ، وهو رزقه الذى قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة . ولم يذكر فى معنى عامل الآخرة وله فى الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له ، واصل إليه لا محالة - لاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصده من زكاء عمله وفوزه فى المآب . انتهى . وهذه الآية كآية^(١) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) الخ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، وَلَوْلَا

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّ يَنْهَاهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٢] (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ،

ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

[٢٣] (ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَن يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» (أَمْ) مقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولا بد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر ما بعده . وما سبق قوله ^(١) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تنمة الأول . والمراد بشرائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم في الكفر وحملوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم اتخذوها شركاء وإن لم تكن كذلك في الحقيقة . وعلى الثانى ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم بما تدبوا به . أو لأنها على صورة المشرع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذٍ للإنكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع . كما فى قوله ^(٢) (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ» أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبين فى الآخرة . فالفصل بمعنى البيان «لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين ، بتعجيل العذاب للكافرين «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ» أى يوم البعث «مُشْفِقِينَ خِمْمَا كَسَبُوا» أى من السيئات «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» أى نازل بهم لا محالة «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أى لأسألكم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذى جئتمكم به ، والنصيحة التى أنصحكم ، ثواباً وجزاء وعوضاً من أموالكم تعطوني «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» أى أن تودونى فى القرابة التى بينى وبينكم ، وتصلوا الرحم التى بيننا . ولا يكن غيركم ، يامعشر قريش ، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل) . والقربى مصدر كالقرابة . و (فى)

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلّة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى . والاستثناء منقطع . ومعناه نفى الأجر أصلاً . لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل (الْقُرْبَى) التقرب إلى الله تعالى . أى إلا أن تموددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عول عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره . فى البخارى^(١) عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فقال سعيد بن جبیر : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجبت . إن النبي ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارى - أى عن مسلم - ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبي والضحاك وعلى بن أبى طلحة والعوفى ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني فى نفسى ، لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة التى بيني وبينكم . وروى الإمام أحمد^(٢) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً ، إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقرّبوا إليه بطاعته . وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرى مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فآخر

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٢ - سورة الشورى ، ١٠ - باب قوله إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٢٤١٥ (طبعة المعارف) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن في إسناده مبهما لا يعرف ، عن شيخ شيعى ، وهو حسين الأشقر ، فلا يقبل خبره في هذا المحل وذكر نزول الآية في المدينة بعيد . فإنها مكية . ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالكلية . فإنها لم تتزوج بعلى رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرهما به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخارى . ولا نذكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلى وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال في خطبته : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتى . وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض . وروى الإمام أحمد^(٢) عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن . وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا وقال : والذي نفسى بيده ! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله . هذا ملخص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه في الإيساع في ذلك تقي الدين ابن تيمية في (منهاج السنة) من أوجه عديدة . قال في الوجه الثالث : إن هذه الآية في سورة الشورى . وهى مكية باتفاق أهل السنة .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ١٧٧٢ (طبعة المعارف) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة . والحسين في السنة الرابعة فتسكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبي ﷺ الآية بوجود مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال : الوجه الرابع - إن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك . فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علي ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى . ولكن معناها لا أسألكم بامعشر العرب وبامعشر قريش عليه أجرا . لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم . فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه . الوجه الخامس - أنه قال : (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى . فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال ^(١) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وقال ^(٢) (مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وكذلك قوله ^(٣) (وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينُ وَالْأَسْهَلُ) وقوله ^(٤) (وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى) وهكذا في غير موضع . فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبي ﷺ ، وذوى قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (في القربى) . فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) . الوجه السادس - أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودة لذوى القربى ، ولم يقل في القربى . فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره : أسألك المودة في فلان ، ولا في قربي فلان . ولكن أسألك المودة لفلان ، والمحبة لفلان . فلما قال المودة في القربى ، علم أنه ليس المراد لذوى القربى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٩ / الحشر / ٧] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٢٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

الوجه السابع - أن يقال إن النبي ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا البتة . بل أجره على الله كما قال ^(١) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) وقوله ^(٢) (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) وقوله ^(٣) (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال ^(٤) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) ولا ريب أن محبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة . لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبي ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفي الصحيح ^(٥) عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خما) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله في أهل بيتي) وفي السنن ^(٦) عنه أنه قال (والذي نفسى بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرايتي) فمن جعل محبة أهل بيته أجرًا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيماً . ولو كان أجرًا له لم نُثَبِّ عليه نحن ، لأننا أعطيناه أجره الذى يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن - إن (القربى) معرفة باللام . فلا بد أن يكون معروفًا عند مخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت ، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج على بفاطمة . فالقربى التى كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تكون هذه . بخلاف القربى التى بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول (لا أسألك إلا المودة فى الرحم التى بيننا) وكما تقول (لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم) (ولا أسألك إلا أن

(١) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٠] و [٦٨ / القلم / ٤٦] .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤٧] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول (طبعة الحامى) .

والحديث رقم ١٧٧٧ (طبعة المعارف) .

تتقى الله في هذا الأمر) . انتهى « وَمَنْ يَتَّزِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » أى بمضاعفته « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأتاب « شَكُورٌ » لسميهم بتضاعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَخْتِمِ اللَّهُ الْأَبْطِلَ وَيُحِقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
 « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افترت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك . أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن . كقوله (١) جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أى لا تقمنا منه أشد الانتقام ، وما قدرا أحدا من الناس أن يحجز عنه . انتهى .

وهذا تفسير بالأشياء والنظائر من الآيات ، يؤثره كثير من الأئمة ، ما وجد إليه سبيلا . فإن التنزيل يفسر بمضاهى . ومآل الآية على هذا المعنى ، كما أوضحه أبو السعود ، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى ، لمنعه من ذلك قطعا ، نختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه . وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حيننا حيننا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشري : فإن يشأ الله يجعلك من المحتوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب . فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المحتوم على

قلوبهم . ومثل هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى . لعل الله أعمى قلبى . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكِبَ من تحوينه أمرٌ عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فمعناه ؛ إن يشأ الله يحتم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى (بأن) فى موضع (لو) إرخاء للعنان ، وتلميحاً للبرهان . على أنه لا يتصور وصفه بما ذكره . فالتفريع بالنظر للمعنى الممكنة عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال ، لأنهم مطبوعون على الضلال . انتهى «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» استئناف مقرر لنفى الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس (يمح) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق) . قال الرخشى : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذى لا مرد له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

«وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ۖ» أى يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاقته ، من بعد كفره «وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ۖ» أى معاصيه التى تاب منها «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» أى من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ،
وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ، إِنَّهُ وِيعَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ)

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى يستجيب لهم . تخفف اللام كاحذف
فى قوله تعالى ^(١) (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أى يثيبهم على طاعتهم «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ» أى
على ثوابهم ، منةً منه وطولاً «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ «أى تجاوزوا الحد الذى حده لهم إلى غيره ، بركوبهم ما حظه
عليهم . لأن الغنى مَبْطَرَةٌ مَّائِثَةٌ» ^(٢) (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّءَاهُ اسْتَعْغَىٰ)
«وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاءه بقدر ، لكفايتهم
«إِنَّهُ وِيعَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ» قال الزمخشري : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ،
فيمقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويعنع ويعطى ، ويقبض
ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ
الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ)

«وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ» أى بركات الغيث

(١) [٨٣ / المطففين / ٣] . (٢) [٩٦ / العلق / ٧٠٦] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ،
والحمود على أيديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ،
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
أى حشرهم يوم القيامة «إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» أى متمكن منه ، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم .

تنبية :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه
الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل
من قوله تعالى (١) (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)
أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض .
ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون
فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال : لعمري ، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ،
لآية لأهل هذا العصر وأية آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح
بلا حد ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجَدِّ العنيف
والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقليّ ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها . وإن الكواكب السيارات كريات . وأن النجوم الثوابت شموس ، ولها سيارات تدور حولها . ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء ، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض . وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخاطبة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فنّا . ويستدل على إمكانيةه من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعما فكريا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان .

وقال أيضا : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين ، أولا وبالذات . لكن ، تمهيدا لهذه السبيل ، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمل في خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية . فلفسروا رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات ، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذرون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحير عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية . لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أولوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه . وقال عالم فلكي أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته . وباقي الكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات في هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول في كتابه ^(١) (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) ويقول ^(٢) (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » أى فسبب معاصيكم وما اجترتم من الآثام . « وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم في قبضة تصرفه « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى إذا أراد عذابكم . فاتقوه واخشوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ) [٣٣] (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ » أى السفن الجارية « فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ » أى الجبال

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٩] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] .

« إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ » أى فيمقتين ثوابت على ظهر البحر « إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجربها « لَأَيِّتٍ » أى لعبرة وعظة وحجة بيّنة على القدرة الأزلية « لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَوْ يُوقِنَنَّ إِيمًا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)

[٣٥] (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« أَوْ يُوقِنَنَّ » أى أو يهلكن بالفرق « إِيمًا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ » عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيدهم أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَا أَوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٣٧] (وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْأَنْثَىٰ وَالْفَوْاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)

[٣٨] (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

«فَمَا أُرَيْتُمْ مِّن شَيْءٍ» أى مما زين للناس حبه من الشهوات «فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أى فهو متاع لكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ» أى من ثوابه الأخرى «خَيْرٌ وَأَبْقَى» وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» أى يصفحون عن أساء إليهم «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيده ، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه . وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم ، وصدق تآخيههم فى إيمانهم وتحابهم فى الله تعالى «وَرِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» أى فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة ونفقة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعوثة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» أى بالعدالة . احترازاً عن الذلة والانظلام ، لكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانى . وقال ابن جرير ^(١) : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون : بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السدى حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يمتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب . لأن الله لم يخص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفي ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزخشرى . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعدي حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل ، إن كان ولي دم ، أو رد على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلولوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٢] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » أى جزاء سيئة السيء ما مثلهما . إذ الفحصان حيف والزيادة ظلم . ثم بين تعالى أن العفو أولى ، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أى بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى ثوابه عليه . وفى إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » أى البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام « وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ » أى بعد ما ظلم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، وأهو مصدر المبني للمفعول « فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » أى للمعاقب ، ولاللعائب والمائب . لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه ، ولم يتعد ولم يظلم ، فكيف يكون عليه سبيل ؟ « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » أى يبدءوهم بالظلم والإضرار ،

أو يمتدّون في الانتقام « وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أي يتكبرون فيها ويفسدون « أَوْ لَعْنَتِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي : بسبب ظلمهم وبغيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« وَلَمَنْ صَبَرَ » أي على الأذى « وَغَفَرَ » أي لمن ظلمه ولم ينتصر « إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أي التي ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تنبيه :

نقل السيوطي في (الإكمال) عن السكيا الهراسي أنه قال : قد ندب الله إلى العفو في مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » أن الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصرّ ، لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين . وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ، عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب في الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المائلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذي انتهى إليه الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصفار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة في تركية النفس وهضمها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطهما بين الاقتصاص البتة والعفو كلياً ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا وتفريطا . والدين دين الفطرة . وهي تقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجبلتها والقضاء الأدبي والوازع الرحماني يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثليته ،

مما لا يبعد ، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها ، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى (إِنَّهُوَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) كما قال الزمخشري ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصا في حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدِهِ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من ولي يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعتاب منهم في غير وقته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذُلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ)

[٤٦] (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٧] (اُسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ،
مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ)

« وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ » أى من طرف قد خفي من ذله وصغاره « وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد ، وتقويت النعيم المؤبد « أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ وَ مِّن سَبِيلٍ * اُسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ » أى أجبوا أيها الناس داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ » أى لا يردده الله بعد ما حكم به . ف « من » صلة (مرَدَّ) أو هى صلة (يَأْتِي) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن رده « مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترعتموه ، لأنه محصى عليكم . أو نكير ينكر على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ،
وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا ، وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَبْغَا
قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)

« فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك . « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَبْغَا قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ » أى جحود نعم ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ، يَخْلُقْ مَا يَشَآءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ اِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوْرَ)

[٥٠] (اَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَاِنثًا ، وَيَجْعَلُ مِّنْ يَشَآءُ عَقِيْمًا ، اِنَّهُ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ)
 « لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَخْلُقْ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ اِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوْرَ * اَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَاِنثًا وَيَجْعَلُ مِّنْ يَشَآءُ عَقِيْمًا اِنَّهُ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ »
 أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة . وتقديم الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل ، أو لتطيب قلوب آبائهن ، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته ، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكرهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبي : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من البن (ومن يمن المرأة بتكثيرها بأنثى) .

قال الشهاب : والضمير فى (يُزَوِّجُهُمْ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان . إن ضمن معنى التصيير . يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين . كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث . . ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَّرَآئِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُوْلًا فَيُوْحٰى بِاِذْنِهٖ مَا يَشَآءُ ، اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيْمٌ)

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ اِلَّا وَحْيًا » أى إلهاما وقذف فى القلب منه ، بلا واسطة « اَوْ مِنْ وَّرَآئِ حِجَابٍ » أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه ، كما كلم موسى عليه السلام « اَوْ يُرْسِلَ رَسُوْلًا » أى من ملائكته كجبريل « فَيُوْحٰى بِاِذْنِهٖ مَا يَشَآءُ » أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ، ما يشاء إجماعه ، من أمر ونهى وغير ذلك ، على سبيل

الإلقاء والنفث في الروح والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُ وَعَلَى » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شيء حضوره . قاله القاشانى .

وقال المهايى : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى . « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه في تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايى : أى حكيم فى تبليغ كلامه العلى إلى البشر الضعيف .
تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلت بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبى ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحنث . لأنه تعالى استثناء من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كله إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٥٣] (صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

« وَكَذَلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسماء روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و (أَوْحَيْنَا) مضمن معنى (أَرْسَلْنَا) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحي « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا فَهَدَى بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المسأب . إنه الكريم الوهاب .